Journal Of the Iraqia University (74-4) November (2025)

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502

Journal Of the Iraqia University

available online at

https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

قراءة تاريخية للحياة الاجتماعية في دمشق من خلال كتاب ابن طوق

م.د صابر محمود سلوم

وزارة التربية/المديرية العامة لتربية صلاح الدين

Historical Reading of Social Life in Damascus Through Ibn Tūq's Book

Asst. Prof. Saber Mahmoud Salloum

Ministry of Education / General Directorate of Education in Salah al-Din

Sabersaloom64@gmail.com

الملخص

دوّن ابن طوق في يومياته تفاصيل دقيقة عن أحوال الناس، والأسواق، والعادات، والمجالس العلمية، فكانت مذكراته مرآة صادقة تعكس واقع المدينة بعيداً عن الروايات الرسمية. يظهر من خلال كتابه أن دمشق كانت مدينة نابضة بالحركة، تتنوّع فيها الطبقات الاجتماعية بين العلماء والتجار والحرفيين والعامة، وأن العلاقات بينهم كانت تقوم على الاحترام المتبادل والتعاون رغم التفاوت الاقتصادي.كما يبرز ابن طوق صورة الأسرة الدمشقية بوصفها نواة المجتمع، متماسكة القيم، قائمة على الدين والعرف، ويصف عادات الزواج والمآتم والاحتفالات الدينية وصفاً دقيقاً يكشف عن عمق التدين الشعبي والاهتمام بالمظاهر الاجتماعية. ولم تخلُ يومياته من الإشارة إلى الفقر الذي عاشه هو وغيره من أبناء طبقته، مما يعكس الظروف الاقتصادية الصعبة التي مرت بها دمشق في تلك الحقبة.أما من الناحية الثقافية والدينية، فقد كانت المساجد والزوايا مراكز نشاط فكري وروحي، يلتقي فيها العلماء والمتصوفة، ويتبادلون العلم والنصح. وقد أظهر ابن طوق في كتابه تقديراً واضحاً لدور العلم والدين في تماسك المجتمع.الكلمات المفتاحية: الحياة الاجتماعية، ابن طوق، دمشق، قراءة، تاريخية

Ibn Tūq recorded in his diaries precise details about the conditions of people, the markets, customs, and scholarly gatherings, making his memoirs a sincere mirror reflecting the reality of the city, far from official narratives. Through his book, it becomes evident that Damascus was a bustling city, with social classes ranging from scholars, merchants, and artisans to the general populace, and that relations among them were based on mutual respect and cooperation despite economic disparities.Ibn Tūq also highlights the Damascus family as the nucleus of society, cohesive in values, grounded in religion and customary norms. He provides detailed descriptions of marriage customs, funerals, and religious celebrations, revealing the depth of popular religiosity and the attention given to social appearances. His diaries also mention the poverty he and others of his class experienced, reflecting the difficult economic conditions Damascus faced during that period.From a cultural and religious perspective, mosques and zawiyas served as centers of intellectual and spiritual activity, where scholars and Sufis met to exchange knowledge and advice. Ibn Tūq's book demonstrates a clear appreciation for the role of education and religion in maintaining social cohesion.Keywords: social life, Ibn Tūq, Damascus, historical reading

المقدمة

يشكّل كتاب "التعليق" لشهاب الدين أحمد بن محمد بن طوق الدمشقي مصدرًا فريدًا لفهم الحياة الاجتماعية في دمشق خلال أواخر العصر المملوكي (٨٨٥–٩٠٨هـ / ١٤٨٠–١٥٠٢م). فقد دوّن ابن طوق يومياته وملاحظاته حول أحوال الناس، والأسواق، والأسرة، والعادات الدينية والاجتماعية، ليقدّم صورة حية وواقعية للمجتمع الدمشقي بعيدًا عن السجلات الرسمية والسياسية. ومن خلال مذكراته يمكن دراسة التفاعل بين الطبقات المختلفة، وأسلوب الحياة اليومية، ودور الدين والتعليم، إضافة إلى التباين الاقتصادي والاجتماعي، مما يجعل الكتاب وثيقة قيمة لفهم البنية الاجتماعية والثقافية للمدينة في تلك الحقبة.

يعكس تباين الطبقات الاجتماعية، إذ يصف حياة العلماء والتجار والحرفيين والفلاحين، ويبرز علاقاتهم القائمة على الاحترام والتكافل رغم الفوارق الاقتصادية. كما يقدّم وصفًا دقيقًا للعادات الأسرية مثل الزواج والمآتم والاحتفالات الدينية، مما يتيح فهم الروابط الاجتماعية والقيم التي كانت تحكم الحياة اليومية. ويضيف المؤلف لمسة إنسانية من خلال سرد معاناته الشخصية من الفقر والضيق المالي، وهو ما يعكس الظروف الاقتصادية التي واجهها كثير من أبناء المدينة.كما أن المساجد والزوايا تشكّل في كتاب ابن طوق مراكز للعلم والروحانية، حيث يجتمع العلماء والمتصوفة، ويتبادلون المعرفة والنصح، مما يدل على الارتباط الوثيق بين الدين والتعليم والبنية الاجتماعية. وبذلك، يوفّر التعليق مادة قيّمة لفهم دمشق ليس فقط كعاصمة سياسية، بل كمجتمع حيّ متماسك الثقافات، متنوع الطبقات، ومترابط بالقيم الدينية والاجتماعية.

المبحث الأول حياة ابن طوق

اولا / نشأة ابن طوق :هو شهاب الدين أحمد بن محمد ابن أحمد الدمشقي الشافعي الشهير بابن طوق، ولد في ربيع الأول سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م، وتوفي يوم الأحد ثالث أو رابع رمضان ٩١٥هـ/١٥٠٩م (الغزي، ١٩٩٧، ص١٢٧)وقد وصف بأنه الشيخ الإمام العالم المحدث الصالح، وقد عرف عنه بأن مذكراته تزودنا بمعلومات كثيرة عنه وتلخص من معلومات ما يتحدث به عن نفسه، حيث أنه كان فقيهاً شافعياً، غير ذي شأن على علاقة متينة وشبه يومية لتقي الدين أبو بكر بن عبد الله بن قاضي عجلون ٨٤١هـ-٩٢٨هـ/١٤٣٣م-١٥٢١م، أعلى الفقهاء الشافعية شأناً في دمشق في زمانه، وقد كان ابن طوق فلاحاً على هامش الفقهاء، وكانت عائلته قد تحولت من موطنها الأصلي في قرية جرود وهي نفسها المعروفة حالياً باسم جيرود، والتي بقي يدعوها بلادي إلى دمشق، والظاهر أن هذا التحول لم يكن منحصراً ببيت ابن طوق بل شمل عدداً من أفراد عائلته، وكان بيته بجوار مسجد القصر المعروف بجامع منجك، وكان في حارته مدرسة عرفت باسم اليلباتية في جوار حمام الجيعان، وكانت بجانب بيته جنينة يبدو أنها كانت من معالم الحارة في ذلك الأوان اسمها جنينة الشجرية(ابن طوق، ٢٠٠٠، ص٩)وحصل ابن طوق في دمشق على شيء من العلم بحيث تأهل لمهنة الشهادة التي كانت جزء من النظام القضائي المعمول به في زمانه وهي تشبه إلى حد بعيد عمل مسجل العقود أو كاتب العدل في هذا الوقت، لكن كان على الشاهد ما سجله أمام أحد القضاة لكي يكتب الصفة الإجرامية النهائية، وقد أثبت ابن طوق في مذكراته نصوصاً أمينة لعقود ما كان يسجله، وكان من جملة عمله كشاهد تنظيم عقود صورية لتغطية عمليات إقراض بالربا الفاحش، بل أنه يقرض بالربا بحيلة، كما كان يتعاطى ما يشبه عمل الخبير الزراعي ومسح الأراضي وهي خبرة اكتسبها ولا ريب من بيئته الفلاحية، كما كان يستأجر أرضاً من مالكها ويزرعها لحسابه، كما كان إلى جنب داره بستان صغير يزرع فيه القنبيط والرمان واللوز والسفرجل والورد ويربي فيها دجاج بأعداد كبيرة، ويبيع من كل ذلك أن يقدمه هدية في المناسبات للقضاة وكبار الفقهاء(ابن طوق، ٢٠٠٠، ص٩)كان ابن طوق مستفيداً بصلاته مع القضاة وكبار الفقهاء ساعياً إلى تعزيز تلك الصلات، لكنه مع كل هذا السعي وتعدد مصادر الرزق كان يشكو من فقر مقيم، فهو يوماً في شدة عطية من ضيق ذات اليد وآخر في حصر عظيم من ضيق اليد وتراكم أصحاب الديون، واضطر مرة بأن يكتفي من القوت لمدة أربعين يوماً بما ينتجه بستانه من القنبيط بل إنه في أيام ٢٠-٢١-٢٢ من شعبان سنة ٩٠٢هـ بالتحقيق لم يجد ما يتبلغ به فسجل في مذكراته: "لم آكل اليوم شيئاً، وكانت اليد ضيقة جداً"، يبدو أن الفقر والعوز لم يزعزع ابن القرية بل ظل ذلك الإنسان الطيب المتمسك بالأخلاق الشعبية المنتزعة من التعاليم الدينية ومن ذلك أنه رفض العمل بالسلطة متكلماً على الأوقاف أي ممثلاً لها في نظر تلك الأوقاف خشية أن يدخله ذلك في تلك الدائرة المهلكة من وجهة نظره في العمل بالسلاطين، كما غضب وندد بابنه الأكبر حيث يتمنى إليه أنه في سبيله للحصول على وظيفة صغيرة في دار النيابة(ابن طوق، ٢٠٠٠، ص١٠).كان ابن طوق مجرد فقيه صغير، نموذجياً صغيراً لمثقفي ذلك الزمان، يحتل شريحة متواضعة من الهامش الضيق الذي تركه التصنيف الاجتماعي الحاد المحتل من قبل الساسة المقاتلين من جهة ومن فقهاء المذاهب من جهة أخرى(ابن طوق، ٢٠٠٠، ص١٠).

ثانيا / منهج ابن طوق:يتميز منهج ابن طوق بأمرين أحدهما هو من صلب عمل المؤرخ هو تقييد الحوادث والوفيات، والثاني أقرب إلى المذكرات الشخصية التي يسجلها كاتبها لنفسه، وعلى الرغم من أن عمله ليس تدوين للتاريخ، إلا أنه قريب كل القرب من التدوين التاريخي وذلك لذكره حوادث مرتبطة بتواريخ(ابن طوق، ٢٠٠٠، ص١١).كما تميز ابن طوق بذكر الحوادث على شكل يوميات، ولا تستطيع احتسابها على الحوليات أو المواضيع، كما أنه يعتمد على الإسناد في ذكر الحوادث مستخدماً نهج المحدثين لذكر حوادثه بـ: رأيت، وسمعت، إلا أنه يقوم ببينات محددة، في هذا النهج كان يتوجه بما كتبه إلى غيره ممن سيقرؤونه، أيضاً من نهج ابن طوق أنه كان يدون كل ما يراه ويسمعه من أحداث وأخبار، ومن هذا وجدنا لديه معلومات دقيقة عن جميع الأحداث التي تدور حوله، وخاصة السياسية منها ما لا نجده عند غيره، وإنه كان أميناً في نقل الأحداث وليس لديه تحيز لجهة أخرى إلا مايراه من الحق، وأنه كان مناصراً للمظلومين دائماً كما رأى أو سمع بظلم(الغزي، ١٩٩٧، ص١٢٨).

المبحث الثاني الاوضاع الاجتماعية لابن طوق

اولا / الزواج :من العادات الاجتماعية التي لابد من الاشارة اليها وداستها بشكل مفصل هي الزواج والطلاق, التي هي من شأنها تأثير على المجتمع الدمشقي بشكل مباشر, وكان للمجتمع الدمشقي عادات للمجتمع الدمشقي عادات وتقاليد في الزواج خاصة به , مثل عمل الولائم وتقديم الطعام والمشارب المختلفة , ففي سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م اعادت امرأة الى زوجها على اشرفية زيادة على صداقها المقر بذمته, وبشهادة الشهود، وفي نفسة السنة عمل وليمة بمناسبة زواج صدر الدين محمد ابن شمس الدين, على بنت السويطي, وقرأ الكولد الشيخ ابراهيم الناجي , وكان مقدار الصداق ١٠٠ اشرفية . وقدم فيها سكر ومعمول واقراص وركنية, ومشموم, وطيب ودهن وماء ورد , وبعد ذلك سماط بثمانية الوان (ابن طوق، ٢٠٠٠، ص٢١١)كما كان هناك زواج من السراية بعد عتقهن مثلا زواج عبد القادر القدسي على سرية الشيخ شهاب الدين الزرعي , معتقته, المسماة شهريا بشهادة الشهود، كما عقد ابن البصروي علاء الدين على اخت شخص من التجار يقال له ابن المعاريكي, وكان مقدار الصداق ١٠٠ اشرفية , وقدموا للحضور زبادي كثيرة فيها سكر مذاب وبقسماط، وعقد بدر الدين الباسوقي على بنت الشيخ بدر الدين حسن, الثيب على مهر ٣٠ اشرفية المقدم ١٠ اشرفية، وفي بعض الحالات يكون الزواج في دار الزوجة, مثل ما حصل عندما عقد في سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م , ابن المشحون الشاب على زوجة المرحوم عبد القادر , بشهادة الشهود على صداق ١٥ اشرفية ذهب و و٤٠ فضة جدد, وقدم شرابا سُكرا وطيبا, ثم دخل عليها في بيت زوجها المرحوم عبد القادر(البخيت، ١٩٨٩، ص٢٥٠)ويلحظ ان هناك ارتفاع في المهور من سنة الى اخرى, فبينما كانت المهور في سنة ٨٨٦هـ /١٤٨١م تتراوح بين ٨٠ الى ١٠٠ اشرفية , وفي بعض الاحيان اقل من ذلك نلاحظ ارتفاعها في السنوات التالية, مثلا في سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م كان صداق الست اصيل التي عقد عليها ابن محب الدين محمد, ١٣٠ اشرفية. وفي سنة ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م كان صداق بنت شمس الدين محمد الخطيب, التي كتب كتابها على شهاب الدين ابن الفرفور ٣٠٠ اشرفية مقدم ١٥٠ اشرفية وكسوة في كل سنة ٣٢ اشرفية ذهب، ويلحظ في هذه السنة أضيفه شرط جديدة على عقد الزواج وهي اضافتا الى المهر, دفع الزوج مبلغ معيد يتفق عليه كسوة للزوجة في كل سنة , مثل ما حصل في عقد ابن الفرفور السابق الذكر, وذلك فس سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م حيث يذكر ابن طوق, انه عقد قيران ام هاني البنت البكر البالغ على ابن عم ابيها على صداق مقداره ٦٩ اشرفية المقدم ٥٠ اشرفية والمؤخر ١٩ اشرفية و وكسوة في كل سنة ٣٠٠ فضة شامية . يلحظ في هذا العقد اضيفت عبارة جديدة لم نلاحظها في العقود السابقة, وهي عبارة (البنت البكر البالغة) كما انه ذكر في عقود اخر عبارات الخالية عن الموانع الشرعية . ذكر ابن طوق " عقد سيدي على الست سارة بنت البكر الخالية عن الموانع التي لم يعقد عليها سابق, على صداق جملة ٥٥ اشرفية ذهب حالة في ذمته (الصواف، ٢٠٠٥، ص١٢٠).

ثانيا / الطلاق : ان ظاهر الطلاق ظاهر غير محمودة في المجتمعات قال عليه الصلاة والسلام **(أبغض الحلال إلى الله الطلاق)** الا انه يمكن ملاحظ هذه الطاهر في المجتمع الدمشقي تحث لاسباب مختلفة , وكذلك تفشي ظاهرة الخلع واعادتها الى عصمته , فمثلا في ربيع الاخر سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م عندما خلع تاج الدين ابن القصيف زوجتة من عصمته , ثم عقد نكاح بسؤال الشيخ شهاب الدين الصميدي له على ذلك , على شرة دراهم , وبحضور الشهود وكذلك ردت عائشة ينت حمزة ابن سطر , الى زوجها علاء الدين بعد طلقة وخلعين وكان ردها على اشرفي لا غير وقرر لها كل سنة ٣٦٠ فضة(دهمان، ١٩٩٨، ص٨٨) وكان يحدث بعض الطلاق بسبب قسم يمين, مثل ما حصل في رجب ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م حيث خلع زين الدين التاجر , الست فرح من عصمته بسؤالها له على درهم فضة, لقسم وقع منه ما يحث اينه جمال الدين يوسف , بشهادة الشهود , وبعد فترة راجعها بموافقتها على نصف اشرفي زيادة على متاخر صداقها، وكذلك ما حصل في رجب سنة ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م , عندما تحاسب الشيخ شهاب الدين الصميدي , والحمامي علي على اجرة الحصة بالحمام الجارية تحت نظرة واستحقاقة واتفق معه على ان يدفع له كل شهر ١٦٠ فضة وحلف بالطلاق الثلاث من زوجته عائشة اذا لم يوفيه المبلغ في الشهر الثاني وخرج ولم يكمل له المبلغ تكون طالق ثلاثا، وكان يحصل الطلاق والخلع كذلك بسبب مشاكل بين الزوج وزوجته مثل ما حصل في رجب سنة ٩٠٣هـ / ١٤٩٨م عندما حصل الفراق بخلع بين بنت الشيخ ابي الفضل, ام احمد وزوجها بعد امور كثير على متاخر صداقها عليه في ذمته (أبو نضال، ١٩٩٩، ص١٧٩).

ثالثا / ظهور الايتام:ومن العادات التي كانت سائدة في المجتمع الدمشقي هو ظهور الايتام في يوم محدد من كل سنة ويقام حفل في هذه المناسبة وتقدم به الاطعمة والمشارب . حيث ذكر ابن طوق انه " في ربيع الاول من سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م كان ظهور الايتام جمعهم سيد الشيخ (تقي الدين ابن قاضي عجلون) على العادة القديمة وكان نحو ١٤٠ يتيماً, وطبخ لهم ثلاثة اطعمة بجنينة البادرائية, مشمشية, وارز, وارز حلو, وسقوا اقسما, وسكرا وسويقا, ودخلو الحمام واكلوا وشربوا, وزفوا قبل الظهر وختنزا وفرغ ذلك قبل العصر(الزين، ٢٠١٠، ص٥٩).

وكذلك في ربيع الاخر من سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م, كان طهور الايتام وقد قدم لهم طعام سنبوسك, ودخلوا الحمام وركبو من القيمرية بطبول ومزامر بعد الظهر , ودارو خارج البلد جميعه, وظهروا بالبادرائية واكلوا هريسة, وحامظ بديق, وارز حلوا وشربوا فسما وسكرا، وفي محرم سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م كان طهور الايتام على العادة القديمة, وكانوا نحو ٢٦٠ يتيما في البادرائية, وطبخ لهم هريسة وارز حلوا بعسل و وتغدوا سنبوسك, وشربوا اقسما، وفي جماد الاول سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م كان طهور الايتام على العادة البادرائية, ياكلون الهريسة, وارز العسل , وكان عددهم نحوا ٣٠٠ يتيما (الجندي، ٢٠١١، ص٧٣)

رابعا / اكرام الضيف والاطعمة:-ان اكرام الضيف عادة تميز بها اهل دمشق وبرعوا في تقديم انواع الطعام والشراب لمن ينزل عندهم كما انهم كانوا يقدمون الهداية للضيوف ويعلجون دوابهم على احسن وجه وان العلاقات الاجتماعية والتواصل في ما بينهم ياخذ جانب مميز من حياتهم، ويذكر ابن طوق انه قام هو والشيخ بزيارة الشيخ برهان الدين الناجي في بيته وقد اكرمهم في ضيافته, وقدم لهم سنبوسك , وعسل وخبزا، كما وان من عادة اهل الشام اكرام ذوي السلطة وتقديم الهدايا لهم عند زيارتهم, حيث اهدى الشيخ شهاب الدين الصميدي, الى الكافل عندما زاره طبقتين من نحاس نادرتين الوجود, وفيهن اترج وكباد بنفسج ونرجس وانجاص نادر جاء به من بعلبك, وسفرجل نحو ربع قنطار شامي, وسقاه سكرا وانشد فيه ابياتا في غالية الجمال و حتى اعجبته كثيرا واخذ الكافل الورقة التي تضمنت الابيات ثم ذهب راضيا معجبا بضيافة الشيخ (دهمان، ١٩٩٨، ص٩٢)ومن انواع الاطعمة التي تقدم للضيوف لحم وعجينا بالالوان , وشعرية بدجاج, ورخامية بلحم مشوي, وسنبوسك , وبيض, ومن المشارب الفقاعة , والقنبريش (الذي هو نوع من اللبن المجفف) وسكرا، وقد انتشر بما يسمى النقوط , أي الهداية التي تعطى مع ولائم الطهور وغيرها ففي سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م اهدى محب الدين في وليمة طهور لاولاده , ٤٥ للماشطة, ودعى فلاحين نجعا الى وجبتين للغداء والعشاء (الحلاق، ٢٠١٠، ص٥٩).ومن عادات الضيافة انه كان يبيت الناس عند بعضهم حيث يقول ابن طوق " راح بيتنا لبيت قرابتنا بنت الخاتون وباتوا هناك، و كان الواجبات عند زيارة احدا من الاشخاص بان تاخذ له هدية , وهذا يضهر عندما يذكر ان سليمان بن عيسى بن الاعصم قد زارة ابن طوق, وكانت معه سلتين من عنب ورطلين عسل مصفى وسفرة فيها زبيب وجوز ورمان كما ان الضيافة والتواصل كان موجوداعند الشيعة والسنة, وكذلك عند المسلمين وغير المسلمين وليس هنا حرج او تكلف في ذلك, وتذكر انه في سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٩م استضافة فقية الشيعة السيد الكركي الساكن بدمشق, ابن طوق والحاج جعفر وداودار والحاجب وقدمة إوز وارز حلوا وعنبا. كما يذكر ان ابن طوق ومعه جماعة نزلوا في قرية بخعا, واضافوا القسيس هناك (عبد الكريم، ٢٠٩، ص١٨٨).ومن واجبات الضيافة ايضا, هو اعطاء العليق لدواب الضيف, حيث يذكر انه الحاج محمد القطان رئيس قرية القطانة انه اعلق دوابهم وكان العليق ثلاثة امداد ونصف، اما الولائم فكانت تقام في المناسبات, للرجال حينا وللنساء نساء حينا اخر, حيث حسب المناسبة, ولا يجتمع ولائم الرجال والنساء معا، ويذكر ان ابن زين اقامة وليمة للرجال في بيته بمناسبة عرسه واقيمت وليمة اخرى للنساء في بيت امه، وقد كانت تلك الولائم تجمع الخاصة والعامة ولابد منان الدعوة تستجاب حتى وان كان الداعي غير مرغوب, فيذك في سنة٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م انه كانت وليمة عرس ابن ابي الفضل ابن الامام على بنت سراج الدين ابن الصيرفي وقد غزم الخاص والعام, وكان هناك من يبغضه في المجلس (العطار، ٢٠١٤، ص١١٩).

خامسا / الجواري :نرى في مثال الجواري في المجتمع الدمشقي كما مبين ابن طوق بأنهن يباعا ويشترا بكثرة ,كما ان العتق كان وارن انذاك وكانت اسعارهن تتأرجح بين الحين والاخر,كما ان البائع يقوم بأعطاء مواصفات الجارية المباعة وما فيها من عيوب وأمراض ,وقد ذكر بأنهن يتعرضن لبعض الجور والتعدي مما يؤدي الى هروبهن من أسيادهن ,حتى وصل الحال الى وقفهن في المعاصي من بعض تجار الجواري الظالمين حيث يذكر ابن طوق في سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م حيث حضر بيع احدى الجواري قد رفضت الذهاب مع المشتري ألا بالقوة ,فكانت تبكي وتصرخ وهو يجرها بالقوة ,وقد ضمن بائعها الحلال والجنون والبرص لا غير ولكن هذه الجارية اجبر سيدها ارجاعها وذلك لكونها لم تأكل ولا تشرب وأنها تريد قتل نفسها ,فندم من باعها وأرجعها ثم أعتقها(الغزولي، ١٩٩٨، ص٨٨).اما اسعار الجواري فكانت تختلف من واحدة الى اخرى , حيث اشتريت الجارية المباركة, جوهرة, بمبلغ ١١٦٠ كلفة، كما وقد بيعت جارية لعصفور الدلال بمبلغ ١١٢٠. وقد ذكر في سنة ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م بان الجواري عندما تباع يذكر محاسنها ومعايبها, قيذكر ابن طوق " بانه شهدة على شراء جارية اشترتها بنت الخاتون من الشيخ ابي الفضل ولكن اكتشفت فيما بعد ان باحدى رجليها تباعد بين السبابة والابهام, واعوجاج, وان بها وجع ومرض, ثم جاءت الخاتون وذكرت ذلك, فذكرته لابي الفضل فقام بإرجاعها, وانه ليس لديه علم بذلك(قاسم، ٢٠٠٣، ص٦٢). كما يذكر ان الجواري يتعرضن للظلم في بعض الاحيان حيث هربت الجارية سرور عندما خرجت من الباب الخلفي الى احدى البنايات المهجورة متخفية عن اهل البيت, وذلك بسبب جور سيدها عليها ومن ذكر عيوب الجواري عند البيع , حيث ذكر ابن طوق انه باع جارية لجلال الدين ابن علاء الدين البصروي, وقد ذكر له جميع عيوبها من

عدم الصلاة , والعجافة, والخمول, وقلة الادب , وان لا يقال لها شيء وفي عينها ضعفا, ويه نزلة مرض, تثور عليها بين الحين والاخر, واشهدت الشيخ يعقوب , وعبد القادر القدسي على ذلك كما وقد اشترى جماعة من الشيخ ابو الفضل جارية اسمها فايزة السوداء, وقد كانت مرأة كاملة ومسلمة, وقد ضمن لهم الحلال, والجنون, والحبل, والبرص, وقد اكتفوا برؤيتها ورضوا بها (محمد، ٢٠١٢، ص٩٠).وقد كان التعدي على الجواري موجود ,حيث قام الحنفي اسماعيل في شهر رمضان من سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م بالتعدي على جارية بيضاء ونام معها وحملت منه, فقال نخصيه على فعلته ثم اشترى محب الدين ابن عبد الباسط ,وهو بياع في الرقيق جارية تدعى نوفرة من نجم الدين محمد ,ورضي بها ضعيفة مبطونة أي فيها اوجاع في البطن ,وأن المشتري لا يعطي حقها ألا بعد شقاؤها كما وقد انتشر بيع الجواري بغير شرعية ففي سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م شكي على ابن الزيتوني عند الحاجب ,بسبب جارية ابتاعها من شمس الدين ابن القميحة ,وباعها لشخص حموي ,يشتهر عنه بيع الجواري ووقفوهن للمعاصي ,فحصل عليه الانكار من الحاجب وغرم مبلغا من المال, وكذلك شمس الدين ابن القميحة على الرغم انه ليس له ذنب في ذلك(الكيلاني، ٢٠٠٨، ص١١٨).

سادسا / الحمامات:-

إن وجود الحمامات في المجتمع الدمشقي , من العادات الاجتماعية التي تشمل الرجال والنساء , وحتى الاولاد, وكان لها وقع على المجتمع مما جرى فيها من احداث.ففي سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م يذكر إنه قد دخل الاولاد الى الحمام, وقد كانت للحمامات بعض الاجور مثل أجور الداية التي تكون على شكل هبه بأشرفية, وعشرون للحمامية, و١٢ للناطور, والوقادة, واثنين لحوائج الحمام، كما ان كان هناك حمامات للنساء , حيث دخلت ام الفضل الحمام , فاعطت للداية هدية٢٠ وللحمام ١٠ هبه وللناطور, واعطت ٦ لحوائج الحمام وسنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م اصبح الاطفال يدخلون الى الحمام الزنجيلي, وقد كانت العادة قبل ذلك عدم دخولهم(محمد، ٢٠١٢، ص١٤٤).وكان في بعض الاحيان يرتكب بعض المخالفات الشرعية في الحمامات, وذلك لكي ما حدث في سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م عندما حدث في حمام الربوة حيث كان يجتمع فيها الرجال والنساء, وتحدث فيه المعاصي وفي سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٨م قد فتح حمام برهان الدين الذي يدخله الرجال والنساء معا, وقد دخل اليه اميرا كبيرا بكرة النهار, ولم ينكر عليهم ما راه من دخول الرجال والنساء معا في الحمام وكانوا يعتنون بتجديد الحمامات حيث جدد في سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٩م حمام الزنجيلي وجدد نحاسه وزجاجه وحياضه , وتغيير انيته, وذلك استعدادا لامير كبير اسم قرقماس, الذي ينوي دخوله وقد كانت بناء الحمامات امرا مستمرا ومالوفا حيث بنية في سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٩م حمامين جديدين , احدهما في بيت الشهابي ابن مزلق وحمام اخر عاما من جهة الجنينة التي اخذها شهاب الدين ابن الفرفور منمولانا الشيخ(منصور، ٢٠١٢، ٢٣٠).

سابعا / الاحوال الجوية:-

استهلت سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م وقد كانت ذات امطار كثيرة مصحوبة برياح قوية, إلانة في نهاية الشتاء لم يكن المطر كثيرا ولا وجود للثلج ولا البرد. اما في شهر محرم من سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م قد تساقط زهرة التفاح الفاطمي , والمشمش والدرات والخوخ , بسب شدة البرود. كما وقعت كثير من الامطار في شهر رمضان من السنة نفسها حتى اصبحت المزاريب تتدفق لكثرة الامطار وغزارته، اما في سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م كانت الامطار ليس بكثيرة حتى عطش الزرع فاخذ خطباء المساجد يدعون الى صلاة الاستسقاء ومنهم خطيب الجامع الاموي في دمشق. وقد كانت هذه السنة تمتاز بالمحل على عكس سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م التي امتازت بكثر الخيرات , والامطار, الا انه تدارك الله عبادة بالرحمة في الثامن والعشرون من محرم من سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م بالامطار حتى روي الزرع ودار الذرع , وفرح العباد به كثيرا. واستمرت الامطار ولكن على شكل رشات ليست بالغزيرة , الا ان قلة الامطار لم تستمر, ففي شوال سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م قد وقع مطر كثير ادى الا رجوع الحجاج لغزارته , كما وقع في ذي القعدة كثر من الثلوج وخاصة على الجبال كجبل قاسيون والحالوص, ومتين, وفي كثير من الاماكن الاخرى (ناصر، ٢٠١٣، ص٢١٣)بينما استهلت سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م ببرد شديد, حتى سقطت الثلوج بكثرة, وكانت هذه الثلوج لها فائدة كبيرة للزرع وقد تكرر وقوع الثلوج في ذي الحجة حتى اخره وقف الثلج على جبل الصالحية بكثرة, فكانت هذه السنة كثيرة الثلوج شديدة البرد، أما سنة ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م تميزت بكثرة الامطار المصحوبة بالرياح والبرد الشديد, وهذا يلاحظ منذ بدايتها , حيث كان الهواء في شهر محرم باردا جدا, والسماء صافية فيها بعض الغيوم ونادرا ما تقع بعض رشات المطر السطحية وفي شهر شوال اصبح بردا شديدا متقلب برياح مع بعض زخات المطر قد زاد تدريجيا حتى جرت الارض وذرفت الميازيب, وقد كان لشدة الرياح الباردة في شهر ذي القعدة, اثر على سقوط الحمضيات والاوراق وتعثر الزراعة, ولم تسقط الامطار الى في ذي الحجة ولكن مصحوبة بالثلوج والبرد الشديد (نجم الجدين، ٢٠١٥، ص٩٥).كما تميزت سنة ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م بالرياح القوية التي اضلمت الاجواء واحجبت الشمس عن الناس وقد كان من شدة الرياح انه كسرت الاشجار واتلفت الفاكهة ويذكر ابن طوق " ان الهواء استمر الى

بعد العشاء حتى تساقطت منه الثمار واتلفت. ومن هذا يظهر ان هذه السنة قد كثرت فيها الرياح العاتية الباردة مع قلة الامطار فيها الا قليل من الزخات، وفي سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م كان شتائها مطيرا, وصيفها حارا جدا , بحيث ان الناس يتحرون من ثيابهم في مكة , والمدينة والقاهرة حيث كان الحر عام وشديد. وقد كان من البرد الشديد في شهر محرم سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٦م حتى حصل للحمضيات , والبقوليات صفعة من شدة البرد, بينما في صفرقد اصبح المطر شديدا حيث يذكر ابن طوق قائلا " وحصل في يومه مطرا كثيرا جدا كافواه القرب , طول النهار والغيم الكثير والمطر الكثير الى اخره ثم الى المغرب ودلف بيتنا جميعه البراني والجواني وانتقلنا الى قاعة الجيران اخر النهار ولم يفد التطيين شيئا" كما انها كانت فيها ثلوج عامة مما ادى الى فرح الفلاحون لري زروعهم (يوسف، ٢٠١٨، ص١٠).

المصادر والمراجع

١- ابن طوق، شهاب الدين أحمد، (ت ٩١٥هـ/١٥٠٩م)، يوميات ابن طوق، تحقيق جعفر المهاجر، قسم الدراسات العربية، دمشق، ٢٠٠٠م، مقدمة المحقق.

٢- أبو نضال، نزيه. المجتمع الدمشقي في مذكرات ابن طوق، مجلة التراث العربي، العدد ٧٤، دمشق، ١٩٩٩م.

٣- البخيت، عدنان. ابن طوق وكتابه "التعليق"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٤٦، عمّان، ١٩٨٩م.

٤- الجندي، محمد. اليوميات في التاريخ العربي: دراسة تحليلية في مذكرات ابن طوق، دار اليمامة، الرياض، ٢٠١١م.

٥- الحلاق، عبد الرحمن. البيئة الثقافية والاجتماعية في دمشق المملوكية، جامعة دمشق، كلية الآداب، ٢٠١٠م.

٦- دهمان، محمد أحمد. تاريخ دمشق في العهد المملوكي المتأخر، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.

٧- الزين، محمد. البيئة الاجتماعية والثقافية في دمشق المملوكية، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١٠م.

٨- السخاوي، شمس الدين. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢م.

٩- الصواف، سهام. الحياة الاجتماعية في دمشق في القرن التاسع الهجري من خلال يوميات ابن طوق، دار الفكر المعاصر، دمشق، ٢٠٠٥م.

١٠- عبد الكريم، حسن. تاريخ الحياة اليومية في المدن الإسلامية: نموذج دمشق المملوكية، دار البشائر، بيروت، ٢٠٠٩م.

١١- العطار، ناصر الدين. اليوميات كمصدر تاريخي: دراسة مقارنة بين ابن طوق وابن طولون، مجلة المؤرخ العربي، العدد ١٥، بغداد، ٢٠١٤م.

١٢- الغزولي، محمد بن طولون. مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.

١٣- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد الغزي، (ت ١٠٦١-١٦٥١م)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

١٤- قاسم، أحمد. منهج ابن طوق في تدوين اليوميات الدمشقية، جامعة آل البيت، كلية الآداب، الأردن، ٢٠٠٣م.

١٥- الكيلاني، عدنان. اليوميات في التأريخ المملوكي: دراسة في مذكرات ابن طوق، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة دمشق، العدد ٢٢، ٢٠٠٨م.

١٦- محمد، سعيد. الوثائق والشهود في دمشق المملوكية من خلال ابن طوق، دار الرشاد، القاهرة، ٢٠١٢م.

١٧- منصور، خالد. وثائق المجتمع الدمشقي في القرن التاسع الهجري: قراءة في يوميات ابن طوق، مجلة جامعة تشرين للدراسات الإنسانية، المجلد ٣٤، العدد ٤، ٢٠١٢م.

١٨- ناصر، عبد الله. الفقر والحياة الاقتصادية في دمشق في ضوء مذكرات ابن طوق، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة حلب، العدد ١٩، ٢٠١٣م.

١٩- نجم الدين، خضر. دور الشهود في الحياة القانونية المملوكية: قراءة في مذكرات ابن طوق، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠١٥م.

٢٠- يوسف، أحمد عبد الغني. يوميات دمشقية في العصر المملوكي: قراءة في مذكرات ابن طوق، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٨م.

References

1. Ibn Tūq, Shihāb al-Dīn Aḥmad, (d. 915 AH / 1509 CE), *Ibn Tūq's Diaries*, edited by Jaʿfar al-Muhājir, Department of Arabic Studies, Damascus, 2000, Introduction of the editor.

2. Abu Nidāl, Nazih. "The Damascene Society in Ibn Tūq's Memoirs," *Journal of Arab Heritage*, Issue 74, Damascus, 1999.

3. Al-Bakhīt, ʿAdnān. "Ibn Tūq and His Book *Al-Taʿlīq*," *Journal of the Jordanian Arabic Language Academy*, Issue 46, Amman, 1989.

4. Al-Jundī, Muḥammad. *Diaries in Arab History: An Analytical Study of Ibn Tūq's Memoirs*, Dar Al-Yamāmah, Riyadh, 2011.
5. Al-Ḥallāq, ʿAbd al-Raḥmān. *The Cultural and Social Environment in Mamluk Damascus*, University of Damascus, Faculty of Arts, 2010.
6. Dahmān, Muḥammad Aḥmad. *History of Damascus in the Late Mamluk Period*, Dar Al-Fikr, Damascus, 1998.
7. Al-Zayn, Muḥammad. *Social and Cultural Environment in Mamluk Damascus*, Publications of the University of Damascus, 2010.
8. Al-Sakhāwī, Shams al-Dīn. *Al-Ḍawʾ al-Lāmiʿ li-Ahl al-Qarn al-Tāsiʿ*, Dar Al-Kitāb Al-Islāmī, Cairo, 1992.
9. Al-Ṣawwāf, Sihām. *Social Life in Damascus in the Ninth Century AH Through Ibn Tūq's Diaries*, Dar Al-Fikr Al-Muʿāṣir, Damascus, 2005.
10. ʿAbd al-Karīm, Ḥasan. *History of Daily Life in Islamic Cities: The Case of Mamluk Damascus*, Dar Al-Bashāʾir, Beirut, 2009.
11. Al-ʿAṭṭār, Nāṣir al-Dīn. "Diaries as a Historical Source: A Comparative Study Between Ibn Tūq and Ibn Ṭūlūn," *Journal of the Arab Historian*, Issue 15, Baghdad, 2014.
12. Al-Ghuzūlī, Muḥammad ibn Ṭūlūn. *Mufākahat al-Khulān fī Ḥawādith al-Zamān*, edited by Muḥammad Muṣṭafā, Dar Al-Fikr, Damascus, 1998.
13. Al-Ghuzī, Najm al-Dīn Muḥammad ibn Muḥammad (d. 1061 AH / 1651 CE), *Al-Kawākib al-Sāʾirah bi-Aʿyān al-Miʾah al-ʿĀshirah*, annotated by Khalīl al-Manṣūr, Dar Al-Kutub Al-ʿIlmiyya, Beirut, 1997.
14. Qāsim, Aḥmad. *Ibn Tūq's Method in Recording Damascene Diaries*, Al al-Bayt University, Faculty of Arts, Jordan, 2003.
15. Al-Kīlānī, ʿAdnān. "Diaries in Mamluk Historiography: A Study of Ibn Tūq's Memoirs," *Journal of Historical Studies*, University of Damascus, Issue 22, 2008.
16. Muḥammad, Saʿīd. *Documents and Witnesses in Mamluk Damascus Through Ibn Tūq*, Dar Al-Rashād, Cairo, 2012.
17. Manṣūr, Khālid. "Documents of Damascene Society in the Ninth Century AH: A Reading in Ibn Tūq's Diaries," *Journal of Tishreen University for Humanitarian Studies*, Vol. 34, Issue 4, 2012.
18. Nāṣir, ʿAbd Allāh. "Poverty and Economic Life in Damascus in Light of Ibn Tūq's Memoirs," *Journal of Humanities*, University of Aleppo, Issue 19, 2013.
19. Najm al-Dīn, Khudr. "The Role of Witnesses in Mamluk Legal Life: A Reading in Ibn Tūq's Memoirs," Master's Thesis, University of Damascus, 2015.
20. Yūsuf, Aḥmad ʿAbd al-Ghanī. *A Damascene Diary in the Mamluk Era: A Reading in Ibn Tūq's Memoirs*, Dar Al-Fārābī, Beirut, 2018.